الشافعي، ومسجد الإمام الليث. وكان واثقًا بأن ذلك كله أدعى إلى أن يبارك الله في حفظه للقرآن، وكان يتحدث بهذا إلى أبيه فيرضى، ويتحدث به إلى أمه فتبتسم. على أنها تعلقت به ذات يوم وأرادته على أن يُزيرَها أهل البيت، فهي لم تستبشر بالهبوط إلى القاهرة حين أنبأها زوجها به؛ إلا لأنها ستزور فيها أهل البيت، ولكن الفتى لم يستجب لأمه، وإنما انصرف إلى زياراته الطويلة، وأحال أمه على ضيفها يُزيرُونَها ما تشاء من مساجد الأولياء؛ فلم يكن يرضى عن زيارة النساء لهذه المساجد والمشاهد، ولم يكن يعجبه تشبثهن بالقبور وتمسحهن بالأضرحة وإلحاحهن على الأولياء فيما كنَّ يطلبن إليهم من قضاء الآراب وتحقيق الآمال، إنما كان يسمو إلى بركة خير من هذا كله وأبقى. كانت فيه نزعة روحية تريد أن تمتاز، لولا أنَّه لم يتهيأ لهذا الامتياز بما ينبغي له من العلم والمعرفة، وكان يجدُّ في سعيه وكدِّه، ويتحدث إلى نفسه بأنَّ يومًا من الأيام قد يُقبل يظهر فيه الشيخ على ما يبذل في سبيل العلم والمعرفة من جهد، فيُلقي إليه بفضل من علمه اللدني الذي لا تسقط منه قطرة ضئيلة في قلبٍ من القلوب إلا ملأته حكمة ونورًا. وفي ذات يوم أو في ذات ليلة ألقى إليه أبوه هذه الكلمة التي لفتته إلى أنه لم يهبط إلى القاهرة لما هو فيه من سعي وجد، وإنمَّا هبط إليها لشيء آخر. قال له أبوه: إذا كان الغد فلا تخرج حتى ألقاك. قال الفتى: ولماذا؟ قال عليٌّ: لأني في حاجة إليك. قال الفتى: إنك في حاجة إليَّ إذا صليت العصر، أليس كذلك؟ قال علي: بل أنا في حاجة إليك إذا صليت الصبح. ثم انصرف عنه إلى بعض الأمر. وكان علي قد قدر في نفسه أنَّه إذا لم يستوثق من ابنه أول النهار لم يظفر به إلا حين يتقدم الليل، فلما كان الغد صحب ابنه في زيارته لبعض المساجد، واستمع معه لبعض الدروس، وقرأ معه شيئًا من القرآن، وعاد به إلى البيت بعد أن صُليت الظهر، فلم يفارقه حتى تمَّ عقد الزواج.

وأُدخِلَ الفتى على زوجه بعد أيام، فلم يُنكر شيئًا ولم ينحرف عن شيء، وإنما سعد بامرأته السعادة كلها، واستيقن فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين ربه أنَّ امرأته بارعة الحسن رائعة الجمال، خفيفة الروح، ساحرة الطرف، خلابة الحديث. وكان كثيرًا ما يفزع إلى الله في أعقاب صلواته ضارعًا إليه ألا يجعل امرأته فتنة له تصرفه عمَّا كان يجدُّ فيه من التقوى والتماس المعرفة. ومع ذلك فقد أنفقت أمه ليلة ساهرة مملوءة بالشقاء، ونهارًا طويلًا حافلًا بالآلام؛ فقد كانت تخشى أن ينفر الفتى من زوجه متى رآها، وأن يزداد منها نفورًا متى أشرقت الشمس على وجهها الدميم. وكانت تصور لنفسها ما سيجد ابنها من الوحشة وخيبة الأمل، فيتفطر قلبها حزنًا، وكانت تصور لنفسها ما